إلى ما لم يكلَّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث[1] .

فقوله تعالى ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التى تأتى باتباع المنهج .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعنى : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شيء فى موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق فى فهمه وتأمله ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦) ﴾ [لقمان] . أخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ .. (٦) ﴾ [لقمان] قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦) ﴾ [لقمان] قال : قراءة القرآن وذكر الله . نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٥٠٤] . وفى خبر آخر عنه أنه النضر بن الحارث .

ونتظر فى معطياته الحقيقية : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هى الحياة الحقيقية وهى الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله فى الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هى وسيلة ، وأنت أيها الذى أعرضتَ عن منهج ربك جعلتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هى الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان . وكذلك الحال فى الفُلْك ، فهى وسيلة تُوصلُك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هى غاية فى حَدِّ ذاتها .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥) ﴾ [العنكبوت] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. (٣٨) ﴾ [هود] وقوله ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢) ﴾ [يونس] واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف] بل هى دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فهذه تعطينا أنهم ركبوا فى السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين[1] .

(١) ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى فى البر أيضاً غيره ، اللهم لك عليَّ عهد ، لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفاً رحيماً ، فكان كذلك . [أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٢١] .

وفى لقطة أخرى يقول القرآن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

فمعنى ﴿ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢) ﴾ [يونس] أى : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاء خالص ويقين إيمان فى أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا فى أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله فى بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ فى كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥) ﴾ [العنكبوت] دعوة خالصة بيقين ثابت فى الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ولا خفى ، فلا ينفع فى هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَلٍ من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم بدور الطبيبِ فى القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب فى وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا فى القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحمه فى رزقه ، ويصرف الناس عنه ؛ لذلك كان يذم فى الطبيب ويُشكِّك فى خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته: انتظرى إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب - يعنى : فى غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها في الذات البشرية لا تجد في النهاية إلا قوة واحدة هي قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذي أنكروا به وجود الله . وهذا يعني أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] شهدوا لأنهم ما يزالون في عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

والله خلق الإنسان خليفة له في الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل في الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذي خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتي في أرضي ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنكَ لست وحدك فيها ، ولكي تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجي ، وفي دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ

الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) ﴾ [العلق] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿ إن إلى ربك الرجعى (٨) ﴾ [العلق] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إليَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة فى فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك ؟ لا شىء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدرى .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرّ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدى مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) ﴾ [يس] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر: ﴿ وإن يمسسك الله بضر .. (١٠٧) ﴾ [يونس] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك ؛ لأنه ﴿ فلا كاشف له إلا هو .. (١٠٧) ﴾ [يونس]

هذه نصيحتى لك ؛ لأنك صنعتى ، وأنا أحب أن تكون صنعتى

على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك فى دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذى يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب فى السفينة خِفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله فى (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ** .. (١٢) ﴾ [يونس] الإنسان يعنى مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿ **أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا** .. (١٢) ﴾ [يونس] يعنى : فى كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أىِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تضطجع على جنبك .

فأنت فى وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمَّا فى حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفى الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفى ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ⑫ ﴾ [يونس]

وفى لقطة أخرى يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ .. ⑧ ﴾ [الزمر] أىُّ ضر ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. ⑧ ﴾ [الزمر] ويا ليته نسى وسكت إنما ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ⑧ ﴾ [الزمر] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام فى هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ⑥⑦ ﴾ [الإسراء]

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً فى موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية فى الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكى عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو فى بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكى فى هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنَّا الضر إنما يعطينا المصل الواقى بصورة تحدث فى الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون

بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث فى حياتكم ، فكل منكم ينبغى أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

واللام فى ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم[1] ، فاللام هنا لام الأمر[2] كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهى هنا مكسورة لأنها فى بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها فى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج]

وقوله سبحانه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها فى قراءة من

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢١) : « هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل » .

(٢) قال جمال الدين بن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٨٦) طبعة عيسى البابى الحلبى : « وأما ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فيُحتمل اللامان ، منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ، ويتعين الثانى فى اللام الثانية فى قراءة من سكَّنها ، فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ، ويؤيده أن بعدهما ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] » .

سكنها ، وفى ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] وقوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فرْق فى الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد فى المستقبل القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب فى الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد فى الدنيا وفى الآخرة فهى تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين فى بادئ الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ فى تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك تجد الدقة فى أخْذ العهد من الأنصار للرسول ﷺ ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحموننى مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنتشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوى فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة »[1] .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون فى الدنيا أيضاً ،

---

(١) عن أبى مسعود البدرى قال : « انطلق النبى ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئتَ ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٠) .

فهى صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شىء أعظم مما فى دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابى الذى أخبره النبى ﷺ بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة فى فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء(١) .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن فى مسائل الدنيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ فى ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله فى كونه لا تنتهى أبداً إلا بالسر الأعظم فى الآخرة ، ففى زمن رسول الله قال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال فى رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعنى أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقى(٢) رضى الله عنه وجزاه الله عمَّا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبى ﷺ يوم أحد » الحديث . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسمه » .

(٢) هو : محمد فؤاد عبد الباقى ، ولد فى قرية بالقليوبية بمصر عام ١٨٨٢م ، ونشأ فى القاهرة ، ودرّس فى بعض مدارسها ، ثم عمل مترجماً عن الفرنسية فى البنك الزراعى (١٩٠٥ - ١٩٣٣) وانقطع إلى التأليف . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٨م عن ٨٦ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣٣٣] .

قدَّم للإسلام خير الجزاء ـ أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصى ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذى من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسى لفظ الجلالة فى البسملة ، وبدأ من ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً[1] . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ ﴾

(رأى) قلنا : تأتى بصرية ، وتأتى بمعنى علم ، ومنه قولنا فى الجدال مثلاً أرى فى الموضوع الفلانى كذا وكذا ، ويقولون : (ولرأىَ الرؤْيا انْم ما لعلَمَا) ، وتجد فى أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما فى قوله سبحانه مخاطباً النبى ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن النبى لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد فى هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه ﷺ : إذا أخبرتُك بشيء ، فإن إخبارى لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ۝٦٧ ﴾ [العنكبوت] فالحرم آمِن رغم ما حدث له من ترويع

(١) أورد محمد فؤاد عبد الباقى (١١٢٥) موضعاً فى القرآن ذكر فيه لفظ الجلالة مجروراً مبتدئاً بقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]

قبل الإسلام حين فزَّعه أبرهة ، وفى العصر الحديث لما فزَّعه (جهيمان) ، وعلى مرِّ العصور حدثتْ تجاوزات فى الحرم تتناقض فى ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة ﴿ حَرَمًا آمِنًا .. (٦٧) ﴾ [العنكبوت] فى القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاثة إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - .

فحين دعا ربه : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] كان مكاناً خالياً ، لا حياةَ فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوِّمات الحياة ، فالإنسان لا يبنى ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوِّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعنى يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا (١٢٦) ﴾ [البقرة]

وبلد هنا نكرة تعنى : أىَّ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأىِّ بلد تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ..(٣٥) ﴾ [إبراهيم] أى : هذه التى صارت بلداً أريد لها مَيْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أىِّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذى تشترك فيه كل البلاد ، لماذا ؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجانى مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترىء الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا

الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَد شجره ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذى جعل لكم بلداً آمناً ، فى حين يُتخطَّف الناس من حولكم ؟ لماذا لا تحترمون وجودكم فى هذا الأمن الذى وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] كيف وقد حَمَيناكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها فى حادثة الفيل ، لما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف[1] مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العلَّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

فالعلة فى أن جعلهم الله كعصف مأكول ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش] لأن اللام فى (لإيلاَف) للتعليل ، وهى فى بداية كلام . فالعلة فى أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلَّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذى يقصده الناس من كل مكان .

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٣] .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش في رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترىء أحد عليهم أو يتعرّض لتجارتهم وهم حُماة البيت ؟

فمعنى ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكّنهم من البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليها أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذى وهبهم هذه النعم ، فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] حجة لله عليهم ، ففى الوقت الذى يُتخطّف الناس فيه من حولهم كانوا هم فى أمان ، فهى حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ .. (٥٧) ﴾ [القصص] غير مناسب للجواب ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] فما دمتم قلتم عن الدين الذى جاءكم به محمد أنه هدى - يعنى هدى لله - فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون فى هذا القول ، ولِمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر ، والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالأصنام ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قال ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون ؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نعَم الله عليهم أنْ يُطعمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهى ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهى ، فما الداعى للمعركة بين حَقٍّ وباطل ؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذى يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعنى ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر ؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجود الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهى لمصلحته ولحكمة خلقها الله ، ومثَّلْنا لذلك بالألم الذى يتوجَّع منه الإنسان ، وهو فى الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذا الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتَكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألم يُنبِّه إليه ، فيظل كامناً فى الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته ؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث ؛ لأنه يتلصَّص فى الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الألم لحكمة ؛ ليُنبِّهك أن فى موضع الألم عطباً ، وأن الجارحة التى تألم غير صالحة لأداء مهمتها ؛ لذلك يقولون فى تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر بأعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدرى بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون له صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعِرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام فى البلاد التى فيها أغلبية إسلامية ، لا بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففى بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً فى نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيمانى ليدخل الناس فى الإسلام ، إنما لجَذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذى يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزبَد مثَلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن عُلوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذى خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسْلِمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾

هذا استفهام يريد منه الحق - سبحانه وتعالى - قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر فى ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطنى شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى فى تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتى من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقى بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتى على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

وقد يكون الظلم بسيطاً هيِّناً ، فالذى افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفترى على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدِّك ، فمَن اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمى ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صدْق وحقٍّ فكذَّبه . ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب

الاستفهام أيضاً ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهى تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفترى هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذِّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام فى ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] استفهام إنكارى يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم فى جهنم .

فالحق سبحانه فى إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين فى الجنة أماكن الكافرين فيها فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين فى النار بالرد ، فمَنْ كان له فى النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] يجعل السامع يشارك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين استُهزِئ بهم فى الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازى هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم ـ وفى هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين ـ فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضتْ عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا فى الظلم .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

نقول : جَهدَ فلان يجهد أى أتعب نفسه واجتهد : ألح فى الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهى لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفى هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعولية فى الآخر ، مع أنهما شركاء فى الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل فى مرة ، ومفعول فى أخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذى له ضلْع أقوى فى الشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين فى جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] إنما التأديب أن نجهر

بدعوتنا ، وأن نعلى كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين :
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[1] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

معنى (جاهدوا فينا) أى : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التى نجاهدها فى الله كثيرة : خصومة فى مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله فى الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا فى أتفه الأشياء التى تستخدمونها فى حياتكم : هذا الكوب الزجاجى وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنا هذه الأكواب ؟

إذن : هى صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذى منحه الله إياه ، وأعمله فى المواد التى جعلها الله فى الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذى اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج فى صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفىء ، وقد أخذ

---

(١) قال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٢٥٥/٧] .

(أديسون) كثيراً من الشهرة وخلَّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون فى الشمس التى تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبَّتْ الشمس عن الطلوع فى يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم فى أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أوْلَى بكم التفكُّر فى عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لى أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضيء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففى الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس فى ضوء شمعة ، وهذا فى ضوء لمبة جاز ، وهذا فى ضوء لمبة كهرباء ، وآخر فى ضوء لمبة نيون ، فالأضواء فى الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الربانى أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس فى هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغى أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضىء بحكم الله ؟ أليس فى صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدّعى أن لله شريكاً فى مُلْكه : مَن الذى قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لى لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوى ولا يؤمنون بالرسول ﷺ فنقول لهم : يكفى من جوانب العظمة فى شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبَحتم أنْ يأتى عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتى بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خصومة فى دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة نقوم به فى ضوء : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذى تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

فساعةَ ترى كلاً منهما فى طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شىء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافى الذى لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغى على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه فى المنهج مُحكماً يأتى محكماً فى قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ۝٦ ﴾ [المائدة]

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف فى تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدى لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التى تُثار بين المسلمين ينبغى أن يكون لها جدل خاص فى هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى التزم به الجميع ، وما تُرك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء فى لغتنا مثلاً تأتى للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإن استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون

هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات]

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذى لا يمنع أن نختلف هو الذى يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدوْر الإصلاح وبدوْر الردع للباغى المعتدى حتى يفيء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيِّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما فى النفوس من غلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوى عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وقوى الضعيف بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكفتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقى لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ لأن النبى ﷺ لما عاد من إحدى الغزوات قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[1] فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك فى ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها فى أهوائها ونزواتها ، وهى فى هذا كله تُلح عليك وتتسرَّب من خلالك .

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٢) .

فعليك أنْ تقف في جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك في جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك في هذه المقابلة وتبصَّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدّها لك قبل أن توجد ، فالذى أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت في قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذى جاء أمه يبكى ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذى يتساقط من السجادة في كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلى خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهى أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟ وهى في الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التى أغضبتها منه .

وكذلك الحق - سبحانه وتعالى - لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلح عليك أنْ تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان

الذى يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن للنفس مدخلاً فى المعصية بدليل قول النبى ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقتْ أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب فى رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب فى رمضان ، وهذا يعنى أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) والبخارى فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال ابن حجر فى الفتح(٤/١١٤): « قال القاضى عياض : يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين » .

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، في حين أن الشمس التي تخدمك تعمر ملايين السنين : إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن في حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعني أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهي حياتك في الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝٤١ ﴾ [التوبة] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت]

الجهاد في سبيل الله أي في الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنتَ بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك في إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت] يعني : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص في عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شيء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً ﷺ ليقول : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك »[1] .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى في الدنيا

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .

لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما في السعي سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففي نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذي فتح الله عليه ، فباع كثيراً في أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَل ، ولم ينظر إلى ربة البيت التي تنتظر عودة زوجها لتشتري ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسى حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أي : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون في إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكي نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ؛ لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما أعطى للإنسان الاختيار في أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً في إنسان ،

ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتي جزاء الجهاد في ذات الله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أي : ندلّهم على الطرق الموصّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش[1] ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة[2] ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره في خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل في شيء فأنت مفضول في أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أي : السبل الموصّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء في اليقين الإيماني الذي قال الله عنه : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم .. (١٢) ﴾ [الحديد]

---

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩) .

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر في الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا فى علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا فى العمل بما علمناه[1] فالذى جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا فى العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج الله ، فلا يحرمك المزيد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقى الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه فى القرآن يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدى به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذى وهبه الله للإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما دخل على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا على ؟

قال على : قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة] يعنى : أربعة وعشرون شهراً .

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] وبطرح العددين يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقل مدة للحمل .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٥) . وتمامه : « ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا » .

هذا هو الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما علموا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذى كان ينزل الوحى على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً - رضى الله عنه - تربَّى فى حِجْر رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله فى الحق حجة ومنطق . فمثلاً فى موقعة صفِّين التى دارتْ بين على ومعاوية كان عمار بن ياسر فى صفوف على ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية »[1] فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف على ، فأسرع عمرو بن العاص وكان فى جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ فى الجيش ، إنْ هى استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هى ؟ قال : تَذَكُّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال - أى على - فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق فى حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير فى حدود مائة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٩١) ، والبخارى فى صحيحه (١/٥٤١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٤٦) من حديث أبى سعيد الخدرى . وويح كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بلية . [لسان العرب - مادة : ويح] .

جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد الولد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان في الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس ما فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح في نفسك المعاصي .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إني أخاف ألاّ تثيبني على طاعتي ؛ لأنني أصبحتُ أشتهيها . يعني : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لي شهوةَ نفس ، وقد أمرتنا يا ربّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبني عليها ، ولمثل هذا نقول :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

كلمة (مع) تفيد المعية ، والمعية في أعراف البشر أنْ يلتقي شيء بشيء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن في مسجد أبي بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل

وهو غَيْب ، مثَل للذين قالوا لنبيهم(١) ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾[النساء]

لكن كيف يرونه والعظمة فى الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل فى أنفسنا ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فتأمل فى أقرب شىء إليك فى نفسك ، لا فى الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهى بين جنبيك ؟ أأدركتها بأىِّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هى معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهى خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله فى الآخرة ؟ ففى الآخرة يخلقنى الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب فى الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط فى الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون فى الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهى ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شىء ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء] . فهم اليهود سألوا نبيهم موسى عليه السلام ، فكان جزاءهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. (١٥٣) ﴾ [النساء] .

فسأله : فأين تذهب الأرواح التى كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق فى إطار : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] وهى فَيْض مما قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]


سورة الروم